تعريفٌ بالكتاب ومؤلفه

بقلم الأستاذ الدكتور: مصطفى الشكعة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الرسل وخير الأنبياء صلاةً دائمةً مباركةً، عليه وعلى آله الطاهرين وعلى صحابته الطيبين وعلى كل من سار على سنته واستمسك بشريعته إلى يوم الدين.

وبعد فإن كلاً من هذا الكتاب النفيس الذى بين أيدينا ومؤلفه الفاضل ليس فى حاجة إلى تقديم، ذلك لأن الكتاب عنوانًا ومنهجًا ومحتوًى يقدم نفسه للقارئ بأفضل مما يقدمه قلم متواضع يحمله مثلى ويخط به سطورًا مهما تأنق فى صوغ كلماتها وسهر فى تجميع مقاصدها، فإنها ـ بغير شك ـ قاصرة عن أن تلبى الحاجة التى تموج فى خاطر القارئ حين يشرع فى قراءة كتاب يحمل اسم أشهر وزير فى أمة الإسلام هو أبو علىّ الحسن بن علىّ الطوسى المعروف بـ«نظام الملك» المتوفى سنة ٤٨٥ هـ .

وكذلك الأمر فيما يتصل بمؤلف الكتاب الأستاذ العلامة الدكتور عبد الهادى رضا محبوبة، ولكن ثمّت وشائج نبيلة ربطت بين قلبينا، وروابط أخوة موصولة رافقت حياتينا، لأنه زميل دراستى الجامعية فى كلية الآداب ـ جامعة فؤاد الأول منذ عقد الأربعينيات من هذا القرن، وقد ساعدت شمائل الدكتور عبد الهادى وما حمله قلبه من نبائل الحب وشحنات البر والوفاء ما قد عمّق الروابط بيننا فبارك أصولها ونمّى فروعها، ومن ثمّ صار كلٌ منّا من أكثر الناس معرفة بشئون صاحبه وشجون رفيقه، الأمر الذى جعلنى أقحم قلمى ليخط سطورًا قليلة يعرّف القارئ من خلالها بمعلومات وجيزة عن المؤلف وعن الكتاب.

obeikandi.com

فأمّا الأخ الأستاذ الدكتور عبد الهادى رضا فهو مسلم عربى عراقى المولد ولكن كلاّ من العراق ومصر تتقاسم هويته الثقافية المتمثلة فى علمه وعروبته وإسلامه، ذلك لأنّه قضى بمصر نحو خمسة عشر عامًا من شرخ شبابه مجتمعةً. متواصلةً حينًا، ومنفرطةً متفرقةً حينًا آخر حصل فى خلالها على جميع إجازاته العالية والعليا بدءًا بالليسانس وانتهاءً بالدكتوراه عام ١٩٥٩م، وإن هذا القدر من حياته المباركة الذى قضاه فى مصر مترع بأسباب السعادة متزاحم بقوافل الذكريات التي تحمل ذاكرتى منها الشىء الكثير الذى لا يتسع هذا التقديم الموجز لذكر نماذج منها، وإن الذى يعيش فى مصر هذه السنوات الطويلة ما كان متصلاً منها وما كان متفرقا، لابد أن يخلف رواسب من الحب للأرض والمكان وأواصر من الود للسكان والإخوان، وهكذا لا يزال الدكتور عبد الهادى مستمسكًا بهذه القيم ملتزمًا بهذه الذكريات، ومن ثمّ فهو ثمرة فتية يتنازع رحيقها كلٌ من القطرين الشقيقين مصر والعراق.

وللدكتور عبد الهادى رضا نشاط علمى عريض فى جامعات العراق وجامعة الكويت، وهو الأب الشرعى لجامعة البصرة، فهو منشؤها وواضع أولى لبناتها وزارع حجر الأساس لكلياتها، وقد ظل الدكتور عبد الهادى رئيسًا لها خمس سنوات تقريبًا حتى خرّجت الجامعة على يديه الدفعة الأولى من أبنائها.

والدكتور عبد الهادى رضا من العلماء المتواضعين المتسمين بلين الجانب وقلّة الكلام ووفرة العلم، فإن داره سواءٌ فى أثناء عمله فى العراق أو الكويت تضم مكتبةً كبيرةً حوت كل نفيس من الكتب، وكل ثمين من الأسفار، بل إنه لمزيد من الحقيقة كانت الدار تضم مكتبتين كبيرتين وليس مكتبة واحدة، فالمكتبة الثانية تخص زوجته وشريكة حياته وقسيمة دربه كبيرة شاعرات عصرنا الأخت العالمة الناقدة الشاعرة الأستاذة نازك الملائكة، وللقارئ أن يتصور كم تضم مكتبتان لمثل هذين الزوجين الرفيعين من جواهر العلوم وكنوز المعارف، إنهما - وقد ترهّبا فى محراب المكتبة الكبيرة - استطاعا أن يستوعبا من صنوف المعرفة ما لم يتوفر لغيرهما اللهم إلاّ للقليل من قرنائهما. وغنى عن البيان - وتلك

حالهما ـ أن يكون قد تخرَّج على أيديهما آلاف من طلاب الجامعات، ومئات ممن حصلوا تحت إشراف كلٍّ منهما على إجازات الماجستير والدكتوراه.

تلك سطور قليلة موغلة فى الإيجاز للتعريف بمؤلف الكتاب.

فماذا بعد ذلك عن الكتاب نفسه؟ هذا الضرب من الأسئلة مما لا تجوز الإجابة عنه فى مثل هذا المقام اللهم إلاّ بكتاب آخر ويكون الحال أنئذٍ ضرب الدعابة، ولكن الميسور فى هذا المقام ذكر بعض ما يتيسر تقريره من حقائق حول شخصية الوزير «نظام الملك» أشهر وزير فى سيرة تاريخ الأمة الإسلامية على وفرة ما حفلت بها مسيرتها من وزراء عظام من أمثال البرامكة: خالد ويحيى والفضل وجعفر وزراء المنصور والمهدى والرشيد، ومن أمثال: أبى الفضل بن العميد والصاحب بن عباد وزيرى بنى بويه، ومن أمثال: عبد الرحيم البيسانى المشهور بالقاضى الفاضل وزير صلاح الدين الأيوبى الذى كان صلاح الدين يقول عنه: «نصرت بقلم عبد الرحيم»، فإذا ما عبرنا إلى الأفق الأندلسى وقع بصرنا على الوزير العالم السياسى المؤرخ الفقيه الكاتب الوشاح الشاعر لسان الدين بن الخطيب.

وإذا كانت هذه المقدمة القصيرة لا تتسع لمثل هذا الحديث الذى حفلت المكتبة العربية قديمًا وحديثًا بكثير من الكتب عن الوزراء والوزارة وآدابها وتقاليدها ومؤهلاتها وغير ذلك، فإنه يجمل بنا أن نخفّف العبء على القارئ لنعبر إلى الشاطئ الذى يخص الوزير «نظام الملك» لنذكر القليل من مؤهلاته ومآثره.

كان «نظام الملك» فارسيًا من منطقة طوس، ولكن الإسلام لا يفرق بين جنس وآخر، فالمرء فى الإسلام بعمله وليس بنسبه، وهو ـ أى نظام الملك ـ من أبناء الدهاقين وهم الزراع وملاك الأراضى، وقد ولد سنة ٤٠٨ هـ فى قرية يقال لها «نوقان»، وقام أبوه بتحفيظه القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ وتعليمه الفقه والأدب والشعر، وقد أولى حديث رسول الله اهتمامًا خاصًا بحيث صار محدثًا، وكان يقول: «إنى أعلم أنى لست أهلاً لذلك، ولكنى أريد أربط نفسى فى قطار النقلة لحديث رسول الله ﷺ».

ولما شبّ عود «نظام الملك» اتصل بخدمة ابن شاذان والى بلخ وكان يكتب له، ولكن هذا الوالى كان يصادره كل عام، فهرب واتصل بوالد السلطان ألب أرسلان، ثم صار وزيراً لألب أرسلان نفسه عشر سنين فلمّا اغتيل سنة ٤٦٥هـ تولى وزارة ابنه السلطان ملكشاه لمدة عشرين عامًا، فكانت مدة توليه الوزارة ثلاثين عامًا تقريبًا.

وكان الوزير «نظام الملك» -شأن أكثر وزراء ذلك الزمان- كريماً جوادًا محبّا للعلم والعلماء وكان يجلس كلاّ من أبى المعالى إمام الحرمين وأبى القاسم القشيرى (صاحب الرسالة) على مسنده، وفى ذلك يقول السبكى فى «طبقات الشافعية»: «مجالسه معمورة بالعلماء، مأهولة بالأئمة والزهاد، لم يتفق لغيره ما اتفق له من ازدحام العلماء عليه. ويلقبه السبكى «بالوزير الكبير العالم العادل، دولته كلها فضل، وأيامه جميعها عدل، ووقته وابل بالسماح مغدق، ومجلسه بجماعة العلماء صباح مشرق».

إن وزيرًا هذا شأنه كان من البدهيات أن يهتم بتعليم الناس اهتمامه بإكرام العلماء فكان أول من أنشأ المدارس، وفى عبارة أخرى أشهر من بنى المدارس والمساجد والأربطة والخانقاوات، فقد أنشأ إحدى عشرة مدرسة أو بالأحرى هى كليات طبقًا لمصطلحات زماننا واختار لها كبار العلماء وكثيرًا ما كان يسهم فى اختبارهم قبل تقلدهم وظائفهم، فبنى هذه المدارس المشهورة فى بغداد، وبلخ، ونيسابور، وهراة، وأصبهان وعسكر مكرُم، والبصرة، ومرو، وآمل طبرستان والموصل، وطوس، وأجرى الأرزاق على العلماء والطلاب والموظفين.

وكان «نظام الملك» فارسًا فاتحًا مظفرًا، ففى عهد وزارته امتدت حدود دولة ملكشاه من كاشغر إلى بيت المقدس طولاً، ومن قرب قسطنطينية إلى بحر الهند غربًا.

لقد أجمع العلماء على الثناء عليه بشمائل لم يوصف بها حاكم من قبل باستثناء الراشدين الخمسة .. من هؤلاء العلماء الذين شملوا الوزير بالثناء

الوافر الأمير العالم أبو نصر بن ماكولا، ومنهم إمام الحرمين الجوينى وغيرهما.

ومن شمائل «نظام الملك» الذى لا أتردد فى وصفه بكبير وزراء الأمة الإسلامية أنه ما جلس قط إلاّ على وضوء، ولا توضأ إلاّ وتنفّل، يقرأ القرآن ولا يتلوه مستندًا إعظامًا له، وإذا أذّن المؤذن أمسك عن كل شغل هو فيه وأجابه، ويصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، ولا يمنع أحدًا من الدخول عليه خاصةً وقت الطعام.

لقد نشر «نظام الملك» العدل والعلم، والجود، والخير، والعمران، والرخاء، وأعزّ جانب المسلمين وحصّن الثغور، ومع ذلك فقد مات غيلة رغم شيخوخته وفناء وقته فى خدمة الرعيّة، إذ طعنه شاب متظاهر بالصوفية فكانت الطعنة قاتلة لزينة وزراء المسلمين بعد إفطار العاشر من رمضان سنة ٤٨٥ هـ فحمل إلى أصبهان حيث جرى دفنه فيها.

وكان من أجلّ ما رُثى به ما أنشأه شبل الدولة أبو مقاتل بن عطية بن مقاتل البكرى قائلاً:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة
نفيسة صاغها الرحمٰن من شرفِ
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها
فردّها غيرةً منه إلى الصَدَفِ

إن الأمر الذى يدعو إلى العجب أن آخر كلام نطق به «نظام الملك» وهو يحتضر: «لا تقتلوا قاتلى، فإنى قد عفوت عنه»، ثم تشهد ومات.

وبعد.. فهل يحاول وزراء المسلمين المعاصرون أن يعرفوا شيئًا عن الوزير «نظام الملك» وأن يقلدوه ولو فى القليل؟! إذن لأفلحوا وأفلح معهم المسلمون.

وبعد مَرةٍ أخرى أقول: هذه كلمات مختصرات أردت أن أحيّى بها أخى

obeikandl.com

وصديقى العالم الجليل الأستاذ الدكتور عبد الهادى رضا محبوبه مؤلف هذا الكتاب النفيس وصاحبه، فحيّاه الله وأسعد زمانه، ونضّر أيامه، ووهبه وكل من حوله نعمة صحة الدين والدنيا وبارك لهم حلاوة إيمانهم، والله سبحانه المستعان.

مصر الجديدة فى : ٢٠ مــن صفـــر ١٤١٩ هـ

١٥ من يونية حزيران ١٩٩٨م

مصطفى الشكعة

obeikandl.com

تقديم موجز

بقلم المؤلّف

كان هذا النمط ـ دراسة الشخصيّات ومكانتها فى التاريخ ـ مألوفًا لدى المختصين ثمّ مالوا عنه إلى ضروب أخرى تعنى بدراسة الفنون والموضوعات أو الظواهر الأدبية والأحداث التاريخية فى بيئات خاصة لفترات معيّنة.

ولا شك بأن مرحلة الانتقال هذه كانت بدافع اليسر والوصول إلى نتائج قيمة واضحة أجدى على القارئ وأجدر بالفائدة لان دراسة الأشخاص تتطلب بحثًا شاملاً للبيئة والعصر اللذين عاش فيهما الأشخاص فتأثروا بهما وأثّروا فيهما. وتتبعًا للأحوال والأعوام التى سبقتهما لتلمس التيارات الاجتماعية التى تلاشت أو بقيت والتى نمت أو ضعفت لتبين ما أضفته تلك الشخصية على التاريخ من مظاهر تقدمية أو رجعية أو محافظة وما أسدته إلى الإنسانية من بعث لأمجاد ماضية أو إثارة لأحقاد بشرية دفينة.

وليست شخصية الوزير ـ نظام المُلك المتوفى سنة ٤٨٥ هـ ـ ممن جهلها التاريخ فقد عرفه المؤرخون وكتبوا عنه فى لغات شتى منذ قرون خلت ولكن بأسلوب الترجمات القديم المتعارف الذى أخذ يتناقله الخلف عن السلف. أما دراسته دراسة علمية مستوفاة لجميع نواحى حياته فلم أظفر لها بكتاب حتى اليوم سوى مؤلف واحد فى «الأردية» نهج مؤلفه طريقة القدماء فى تأليفه.

لقد مرت بى ـ وأنا طالب فى معهد الدراسات الشرقية بجامعة القاهرة ـ فى الخمسينات ـ شخصيات إسلامية كان لها أعمق الأثر فى نفسى وتوجيهى وكان فى طليعتها وزيرنا ـ نظام الملك ـ حيث كنا نتدارس مع أستاذنا المرحوم الدكتور يحيى الخشّاب[1] نصوصًا من كتاب «سياستنامة» فلفت نظرى تفكير مؤلفه

---

(١) زوج الأستاذة الفاضلة المرحومة سهير القلماوى- وقد أنجب منها الدكاترة: عمر، وياسين ـ فكانا خير خلف لخير سلف.

الخصب وسيرته الحافلة بأنواع النشاط والحركة وإيمانه الصادق فى معتقده وثباته الذى لا يثنيه رغبة أو رهبة.

ومن ناحية أخرى، فقد وجدتُ فى سيرته تاريخًا حافلاً لتلك الفترة الحاسمة من تاريخنا وجلاءًا لمسائل مازالت غامضة فى سياسة الخلفاء العباسيين ومن عاصرهم من سلاطين آل سلجوق. ولأن فى تحقيق ذلك جميعه تاريخًا لبغداد العراق وأنا من أبنائها الذين أرى لزامًا علىّ أن أساهم فى البحث عن سالف مجدها وغابر تاريخها. ومن ذلك الحين وجدتنى أنزع إلى تتبع حياة الرجل وجمع ما قيل فيه وألّف عنه ولمّ شمل تراثه والإحاطة به إلى أن هيأت لى الظروف تقديم هذه الدراسة المتواضعة فى سيرتهِ وعصره وآثاره.

وقد اعتمدت فى دراسته على المصادر الفارسية بعد آثاره العربية لأن الفرس ـ فى اعتقادى ـ أعلم بأخبار بلادهم وأطلع على دخائل سياستهم ونفوس ساستهم ولأنه عاش بين ظهرانهم وفى ربوعهم وروُوا عنه من الأقاصيص والأحدوثات ما لم تذكره المصادر العربية. أمّا تلك الآثار التى خلفها لنا فقد أوليتها عناية خاصة، وفضلت عرضها عرضًا يعتمد على التعليق والمقارنة، وترجمت ما لم يترجم منها إلى العربية.

ولما كان لعلاقته بالمجتمع عن طريق البارزين من رجال السياسة والعلم من أثر بالغ الأهمية فقد عنيت بملاحقة هذه الصلات وتحليل هذه العلائق وإيضاح ما حدث بينه وبين أتباعه وبين مناوئيه من صنوف الخصومة معتمدًا فى هذا كله على تراجم عدد كبير من أعلام عصره فى مواضعها المختلفة. ثم بذلت جهدًا لا يقل عن سابقه فى ما تكتبه العرب فى ثنايا مصنفاتهم فى التاريخ والطبقات وبخاصة القديمة والقريبة من عهد «النظام» أو المعاصرة له كدمية القصر للباخرزى المتوفى سنة ٤٦٥ هـ، والمنتظم لابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ. وحاولتُ بعد هذا الاطلاع على ما كُتب عنه فى لغات أجنبية مختلفة وإن كانت مترجمة فوجدت فيها من اللمحات والملاحظات ما نفعنى فى تصوّر أهداف «النظام» فى الحكم وفى الدولة وتوضيح معالم شخصيته.

وقد انتهى بى البحث كمقدمة لهذه الدراسة إلى أن الوزارة نظام عرفه المسلمون حيث بدا مشورة وكتابة وانتهى إلى وظيفة إدارية تنفيذًا تارة وتفويضًا أخرى: وإن أبا سلمة الخلال الوزير العباسى الأول كان عربى اللسان، والسلالة، من قبيلة هَمْدان اليمانية، وليس مولى منسوبًا إلى هَمَدان المدينة الفارسية المعروفة فى إيران، وإن «نظام الملك» كان أكبر الوزراء الإسلاميين مقامًا ودهاءً حيث استطاع أن يضع التاج على مفرق سلطانيه ـ ألب ارسلان وملكشاه ـ وأن يتحكم فى الخلافة العباسية من ورائهما طوال ثلاثين عامًا وأن يشاركهما فى فتوحاتهما حتى وصل حكم الخلافة الإسلامية إلى أقصى حدودها سعةً وانتشارًا: من الهند والصين شرقًا إلى شمال إفريقيا وجنوب أوربا غربًا.

فإذا استطاع هذا البحث أن يصل بى إلى أعماق هذا الوزير ويكشف لى عن دوافعه التى كانت تحمله لأن يبرز فى منشآته العلمية وسلطته الحربية، ثم يجلو لى حقيقة الوضع الاقتصادى والدينى والسياسى والعلمى فى عهده، وكيف استطاع أن ينفذ إلى الحكم ويعيش إمبراطورًا يسوس الخلافة الإسلامية فى عهدى القائم والمقتدر ومن ورائهما مدى ثلاثين عامًا، فإذا استطاع البحث أن يبلغ بى ذلك فإنى أعدّه بداية حسنة يمكن التوسع فى بعض أجزائه والتعمق فى بعضها الآخر عند إعادة النظر فيها وإعادة طبع الكتاب بعون الله وتوفيقه.

ومن الجدير بى أن أعترف بأنى لست من الفراسة أو الخبرة فى تحليل النفوس بحيث أقطع بكمال جميع ما وصلت اليه من نتائج وأحكام، وأن أستطيع الجزم بصحتها ودقتها بشكل تام، على أنى ـ يشهد الله ـ لم أقف منه فى كل ما انتهيت من حكم له أو عليه موقف القاضى المتهم له أو المحامى المدافع عنه، وإنما حاولت قدر المستطاع أن التزم الحياد توخيًا للحقيقة وتحقيقًا للغرض من البحث العلمى معتقدًا بسلامة قول الفقهاء: «المتهم برىء إلى أن تثبت إدانته» ـ أى أن الأصل هى البراءة.

وإنى وإن كنت أتحاشى المبالغة فى نزاهة «النظام» وحدة ذكائه ومدى عبقريته، إلاّ أنه يصحّ أن يتخذ القارئ من حياته مثلاً أعلى للسياسى الهادف ومن سيرته نموذجًا صالحًا للإيمان الصادق وقدوة حسنة للثبات على المبدأ والسعى الحثيث لتحقيقه، وإن كان فى سبيل ذلك خطرًا على حياته وهدرًا لدمه، كما حدث «للنظام» نفسه حيث اغتيل عام ٤٨٥هـ، على يد فدائى من الباطنية فى زىّ صوفى.

د/ عبد الهادى محمد رضا محبوبه

القاهرة ـ القُبّة/ ش سوزان مبارك

فى ١٩ يوليو ١٩٩٨م

obeikandi.com